الدرس السادس

شخصية المؤرخ (1)

بعد أن بينا أهمية البحث التاريخي ودور الموهبة في انجاز بحوث عالية المستوى. وتأكد لنا استحالة تحقيق ذلك من دون أن يكون لدينا باحث (مؤرخ) على مستوى عال من الأهلية العلمية والذهنية، ويكون قد أصبح على درجة واعية من الثقافة والوعي التاريخي، وبالتالي يصبح مدركا للحقل الذي يختاره من حقول الدراسات التاريخية المتنوعة. والمؤرخ يدرس التاريخ باحثا عن الفعل ورد الفعل الصادرين عن الإنسان وبيئته غير المستقرة، وهنا يظهر دور البحث التاريخي في تنظيم معارف الإنسان وأفعاله تجاه محيطه بحثا عن الحقيقة، إذن هو يتحرى ويبحث عن الحقيقة ويصفها، ولكنه يصدر الأحكام ويعطيها تفسيرا يقوم على أساس التصورات الموصولة بمعنى الحياة، ويخضعها لمنهج علمي يقوم على الأسباب والمسببات لاغيا عامل الصدفة والحظ، معتمدا على دوافع براغماتية وأخلاقية، والمؤرخ في ذلك يؤكد الحقائق التي لم يكن بالإمكان حدوثها بطريقة خلاف التي حصلت بها (التكرار- التعاقب).

ومن خلال ما سبق، يمكن القول أن المؤرخ هو شخص محترف متدرب على العمل الكتابي تدريبا علميا، ومن الضروري أن تتوافر فيه الاستعدادات الفطرية، النفسية والكفاءة العلمية المكتسبة التي تؤهله للقيام ببحث تاريخي مميز، والتي تساعده على تنظيم المعلومات التي يريد نقلها إلى القارئ، تنظيما منطقيا له معناه ومدلوله، مرتبا أفكاره ترتيبا متسلسلا في أسلوب علمي رصين بعيد عن الغموض، والإطالة. ولا يتساوى مع الصحفي أو الأديب، الذي لا يكتب التاريخ طبقا لمعايير المؤرخ وأصول مهنته. وهو كذلك يختلف عن المصنف (Compilateur) الذي يتمثل بحال المؤرخ خلال العصور الوسطى كابن الجوزي أبو شامة المقدسي وشمس الدين الذهبي وغيرهم من مؤرخي العرب المسلمين. ويمكن للمؤرخ أن يختص في تحقيق المخطوطات فيصبح محققا أيضا (Editeur de Texte)، ولكن لا يمكن إطلاق تسمية المؤرخ على المحقق مجرد أنه يتمتع بدراية خاصة بالمخطوطات وتحقيقها، ما لم يتدرب أيضا تدريبا

علميا على البحث والعمل التاريخي ويتخصص فيه، ويقتقر فوق كل شي إلى رؤيا فلسفية لتفسير حوادث الماضي.

ومن هنا، ليس كل من يحاول الكتابة في التاريخ يصبح مؤرخا كما يتصور بعض الناس، أو كما يتخيل بعض الكتاب حينما يسطرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة ويعتقدون بذلك أنهم يكتبون تاريخا ما داموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس لأن لقب (مؤرخ) هو تعبير كبير لا يرتقي الشخص الذي يحمله إلى دلالته ومعانيه لمجرد إلمامه بحكاية الماضي، وإنما يتطلب توفر الصفات الضرورية للمؤرخ، وأن تتحقق له الظروف التي تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته، وإن قرب أو بعد الباحث (المؤرخ) في التاريخ من تلك المواصفات والصفات، هي التي تحدد إن كان هذا الباحث (المؤرخ) موهوبا أم عاديا.

وعلى أي حال، إن المؤرخ بحكم كونه قبل كل شي بشر يقيم بينه وبين الأحداث علاقة تبادل وتداخل بين الماضي (الأحداث) والحاضر (المؤرخ)، ولا غنى للمؤرخ عن الأحداث التي بدون وجوده تبقى بدورها مقبورة ولا معنى لها وبالتالي فان التاريخ هو تداخل مستمر بين المؤرخ والأحداث وحوار أبدي بين الحاضر والماضي. وعندنا نوعين من المؤرخين: الأول، المؤرخ التقليدي الذي يستعمل مفهوم الأسرة الحاكمة والقبيلة مثلا في حديثه عن (الدولة، الضريبة، الطبقة) يتكلم حسب فلسفة التاريخ التقليدية، يركز على الجمع بين الوثيقة والنمط التعليلي الذي يعجز عن تفسير الحدث الخصوصي، وهو إخباري تقليدي لا يريد تغيير الفكر السائد.

والثاني المؤرخ المعاصر: وهو الوفي للمنهج التاريخي لا يكتفي بالمفاهيم التقليدية (دولة، مجتمع، طبقة)، ولا يتقيد بالأنماط التعليلية بل يفككها من الجمود ويأخذ المفهوم وهو مفتاح يستعمله لطرح إشكالية للوصول إلى جديد الوثيقة، أي يستخرج معنى يضعه في نسق مقبول.

ولكن هذه المفاهيم والتوصيفات التي نذكرها عن المؤرخ، هل هي موجود في سلوك المؤرخ العربي في وقتنا هذا ؟، سؤال يطرح نفسه بقوة إزاء تدني المستوى في الأداء والعقلية. والإجابة هنا، أن أهم ما يميز واقع المؤرخ في وقتنا الحاضر هو التردي الواضح في المستوى العلمي للمتخصصين من المؤرخين العرب: فنظرة واحدة إلى بعض ما يكتب عن التاريخ في هذه الأيام يوحي بأن هناك أعداد غير قليلة من المؤرخين العرب يكاد يجهل القواعد الأساسية الخاصة بالعمل التاريخي ويتعثر في كتابة أي عمل كرونولوجي متزن في التصميم والمضمون، ويفتقر فوق كل شيء إلى نظرة فلسفية شاملة يدون من خلالها هذا التاريخ ووقائعه. وبدون شك أن كثرة المنتحلين لهذا العلم من هواة ومتطفلين ساهم في شيوع هذه الظاهرة، وفي ظهور مدلولاتها العكسية على شكل تيارات معاصرة في مجال الفكر وشؤون الحياة العامة، لكن جانبا من هذه الظاهرة مرده يعود إلى إسهامات المحترفين الشخصية لهذه المسألة وإلى الإساءة التي تحصل منهم للمهنة عمدا أو بغير عمد.

ومن خلال ما ورد أعلاه، نجد أن البحث الجيد هو ثمار جهد باحث مجد نظرا لارتباط البحث بالباحث وتأثيرهما كل على الآخر سلبا أو إيجابا. والمؤرخ بهذا متلازم مع الحدث التاريخي الذي يحركه باتجاه الفرد أو الجماعة بهدفيه أساسها الحقيقة. ولكن طبعا بوصف وعرض وتحليل وإيضاح يوظفها المؤرخ للوصول إلى الحقائق. وعليه عمل المؤرخ موضوعي له طابع سياسي حضاري وله قيم اجتماعية فكرية (خير-شر) تهتم بالسلوك البشري بتنوعاته (فشل-نجاح).

ومن أجل أن يكون الباحث على قدر هذه المسؤولية، هناك عاملان أساسيان لضمان تقدم الباحث في دراساته، وهما: استعداد الباحث وعملية إعداده، ولا يمكن التهاون بأي منهما، فلا يكفي أن يكون الباحث ذو استعداد جيد حتى يتمكن من تقديم عمل مميز، بل وينبغي أيضا أن يكون معد إعدادا سليما. وهذا يعني أن المؤرخ لا يمكن أن يكون مؤهلا لأداء واجبه وعمله على الوجه الأكمل إلا إذا توافرت فيه صفات ضرورية تجعله قادرا على دراسة التاريخ وكتابته على أكمل وجه وبصورة قريبة أو مطابقة للواقع. علما بإن

اكتساب القدرة على القيام ببحث منهجي، مكتمل الجوانب ليس بالأمر السهل، ولكن التدريب المتواصل، والاستعداد الفطري والعلمي، والإصغاء إلى توجيهات الأساتذة المتخصصين، كفيل بأن ينمي مواهب الباحث، ويضاعف قدراته على البحث بصورة مستقلة.

وفيما يخص استعداد الباحث، نعني بها توفر صفات محددة يجب أن يتحلى بها، وتنقسم تلك الصفات إلى نوعين، هما: صفات ذات طبيعة غريزية في ذات المؤرخ، أو صفات منهجية يكتسبها بالتدريب العلمي المنظم على البحث والعمل الكتابي من منظوره التاريخي، والأولى مكملة للثانية ومقومة لها، وإذا ما تلاحمت فستكون منه على الأقل في بداية عمله مؤرخا مؤهلا للبحث والكتابة. وعلينا الوقوف عند هذه الصفات من أجل رسم صورة المؤرخ عند قراءتنا لما يقدمه من نتاج، وهي:

وهي صفات ذات طبيعة غريزية: وتشمل أمورا معروفة لدى المعنيين في شؤون البحث عند المؤرخ، نذكر منها: حب المعرفة والصبر على تحصيلها. وهذا يعني الجد والمثابرة في البحث والعمل، مهما كانت الصعوبات والمشاق التي تعترض طريقه، ولا يجوز أن تكون ندرة المصادر أو غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها واضطرابها، عائقا أمام رغبته في البحث عن الحقيقة. فلا ينبغي أن توقفه ندرة المصادر، ولا يصرفه عن عمله غموض الحقائق التاريخية واختلاطها فيقضي الشهور والسنوات وهو يعمل باحثا عن الحقيقة. الأمانة والشجاعة وعدم الانتحال والتزييف وعدم التحيز لعصر أو تيار فكري، فهو كالقاضي لا يكون حكمه صحيحا إلا بقدر التخلص من التحيز والهوى. كما يلزم على المؤرخ أن يكون ذو ثقافة واسعة، وملما بالتيارات المختلفة التي تؤثر في مجتمعه الصغير وعالمه الكبير، ومتفهما لتفسيرات المدارس التاريخية المختلفة، مستفيدا من أهم العلوم المساعدة للتاريخ. وعليه أن يكون ذا عقلية منظمة قادرة على الترتيب والتنسيق والاستفادة مما توفر لديه من مادة تاريخية، وأن يكون قادرا على تبين الخط الرئيسي للموضوع والتركيز عليه، وأن يتجنب إغراق نفسه في التفاصيل أو المسائل الفرعية أو الهامشية. وهذه العقلية لا يمكن

توفرها كصفة من الصفات الأساسية في المؤرخ إلا من خلال العمل الدؤوب والمستمر في تطوير القدرات الذاتية وترسيخها.

كما ينبغي أن يكون المؤرخ شجاعا في التعبير عن رأيه، وفي ذكر ما توصل إليه من حقائق ونتائج، وغير مجامل أو منافق، وألا يخفي بعض الحقائق التي توصل إليها، وأن يكون هدفه الحقيقة التاريخية وحدها. ومن يخرج عن ذلك لا يمكن أن يعد مؤرخا، لأن الكشف عن عيوب الماضي وأخطائه تفيد إلى حد كبير في السعي إلى تجنب عوامل الخطأ في الحاضر، وعدم الكشف عنها يعد تضليلا وبعدا عن التبصر والمصلحة.

وعلى من يريد أن يكون مؤرخا حقيقيا أن يأخذ بنظر الاعتبار التحلي بالصبر والتأني وعدم التعجل في إصدار الأحكام، وأن يعطي بحثه الوقت الكافي للمناقشة والمقارنة والتحليل والتفسير. وليس محتما أن يذكر كل الحقائق المتصلة بالموضوع الذي يعالجه، وإنما عليه أن يذكر ما توصل إليه من نتائج، وأن يحدد النقاط أو المواقف التي لم يستطع إيضاحها أو تفسيرها أو التحقق من صحتها، تاركا لغيره من الباحثين محاولة استكمال ما فاته في هذا الشأن. ومن هنا، يجب أن يكون المؤرخ صبورا لا تمنعه صعوبة البحث والمصاعب والعقبات مهما كان نوعها عن مواصلة العمل والاستسلام.

ومن الصفات الغريزية التي يجب توفرها في شخص المؤرخ أن يكون محباً لعمله، ومولعا به، حريصا على خدمة الحقيقة وحدها، غير قاصد من وراء عمله التقرب إلى حاكم أو الحصول على منصب، أو وضع التاريخ في خدمة المصالح السياسية. وأن لا يكون مسعاه من وراء الكتابة التاريخية تحقيق الشهرة وحب الظهور. وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه والمناصب، وأن يكرس نفسه للعمل العلمي في صمت وسكون، من غير أن يوزع جهده هنا وهناك، ومن دون أن يقوم بأعمال أخرى -نافعة بغير شك- يمكن أن يقوم بأدائها آخرون على خير وجه، إذ أن الحقيقة العلمية التي قد يكشف عنها تعادل كل ألوان الكسب وصفوف المناصب أو تزيد عنها. ولا شك أن العاكفين المتفرغين

للدرس والبحث في كافة العلوم ومنهم المؤرخون، هم الذين يقوم على أكتافهم تقدم الإنسانية وازدهار الحضارة.